الاستغراب: فريضة علمية وحضارية

نيقولاس رونريس نيبوت

أستاذ، جامعة مالقة، إسبانيا

الملخص

إن الحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة – إلى حد الآن – التي أنشأت مؤسسة ثقافية لدراسة خصائص الحضارات الأخرى ألا وهي الاستشراق. وكان غرض هذه المؤسسة في بدايتها تزويد المثقفين الغربيين وساستهم بمعلومات تستخدم لهدفين أساسيين؛ أولهما: صرف الشعوب والمجتمعات الغربية عن التأثر بأفكار ونماذج حياة غير مرغوب فيها عند الساسة لرعيتهم (وكان الإسلام في مفهومه الحضاري بقعة هذه الأفكار والنماذج أول الأمر)؛ وثانيهما: الانتقاص من الحضارات الأخرى للاقتناع من بتفوق الحضارة الغربية وإقناع غير الغربيين بذلك من أجل سيطرة الغرب السياسية على الشعوب والدول في مختلف أنحاء العالم.

وها هو أحد الأسباب التي جاءت بالغرب إلى المكانة المرموقة التي يشغلها بين سائر الحضارات وهيمنته عليها في كثير من الميادين ماضياً وحالياً، وهو مالا يجوز إنكاره مهما كان الموقف منه .

ولكنه في الوقت نفسه وبغض النظر عن المرمى الأساسي للمؤسسة وعن إنجازاتها لصالح الحضارة الغربية ومع مرور الزمن عاد الاستشراق بفوائد كثيرة سواء كان للغرب في فتحه على غيره من الحضارات، ولو بشكل سطحي في بعض الأحيان، أم للشرقيين أو من في حكمهم لما تعلموا من أنفسهم في مرآة مغايرهم الغربي، ومن نظرة الغرب إليهم، وهذا الأخير في أقصى الأهمية؛ إذ يقع التعامل والتواصل – غالباً – على التصورات عن الغير وليس على أوجه الواقع. وذلك على الرغم من أن واقع الأمور معروف عند بعض القادة وصناع القرار، لكنه لا يرونه أهلاً لمن دونهم من المواطنين أو الرعية.

وفي ما يتعلق بالحضارة العربية والإسلامية – وكانت السبب الأول لإنشاء مؤسسة الاستشراق لدى الغرب – فإنها لم تبال – كسائر الحضارات باستثناء الحضارة الغربية، بدراسة الحضارات الأخرى إلا في المسائل الإدارية والحربية، وهذا في آخر المطاف. ويأتي التاريخ المشترك بين الغرب والحضارة العربية والإسلامية بأمثلة عديدة من غلبة الغربيين على العرب والمسلمين في شتى المجالات لأجل انعدام معرفة الخصم عند هؤلاء، ومسبق العلم عنه عند أولئك.

وكفى بهذه الأمثلة داعياً إلى إنشاء وتنمية علم الاستغراب بين العرب والمسلمين، لكنه أمر جانبي بالنسبة إلى ما هو أهم، وهو أن معرفة الغرب في خصائصه الجوهرية وتطوراتها فريضة علمية وحضارية على العرب والمسلمين الآن. وهذه المعرفة التي هي أساس علم الاستغراب يجب أن تسعى إلى استفادة العرب والمسلمين من تحقيقات الغرب وتجنب أخطائه ومساوئه فضلاً عن معرفة أحسن للحضارة العربية والإسلامية نفسها بمقارنتها بالحضارة الغربية، وهذا شأن يتأتى عليه تقييم أفضل لكلتا الحضارتين وانتفاع العقل من محاسنهما.

إن الحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة – إلى حد الآن – التي أنشأت مؤسسة ثقافية لدراسة خصائص الحضارات الأخرى ألا وهي الاستشراق. وكان غرض هذه المؤسسة – في بدايتها – تزويد المثقفين الغربين وساستهم بمعلومات تستخدم لهدفين أساسيين: أولهما صرف الشعوب والمجتمعات الغربية عن التأثر بأفكار ونماذج حياة غير مرغوب فيها عند الساسة لرعيتهم (وكان الإسلام في مفهومه الحضاري بقعة هذه الأفكار والنماذج أول الأمر)؛ وثانيهما الانتقاص من الحضارات الأخرى للاقتناع بتفوق الحضارة الغربية وإقناع غير الغربيين بذلك من أجل سيطرة الغرب السياسية على الشعوب والدول في مختلف أنحاء العالم.

وها هو أحد الأسباب التي جاءت بالغرب إلى المكانة المرموقة التي يشغلها بين سائر الحضارات وهيمنتها عليها في كثير من الميادين ماضياً وحالياً. وهناك أمران لا يجوز إنكارهما مهما كان الموقف منهما.

ولكنه في الوقت نفسه وبغض النظر عن المرمى الأساسي للمؤسسة وعن إنجازاتها لصالح الحضارة الغربية وطالح بقية الحضارات، ومع مرور الزمن فقد عاد الاستشراق بفوائد كثيرة سواء كان للغرب في فتحه على غيره من الحضارات ولو بشكل سطحي في بعض الأحيان، أو للشرقيين أو من في حكمهم لما تعلموا من أنفسهم في مرآة مغايرهم الغربي ومن نظرة الغرب إليهم. وهذه النقطة الأخيرة في أقصى الأهمية؛ إذ يقع التعامل والتواصل غالبا على التصورات عن الغير وليس على أوجه الواقع. وذلك على الرغم من أن واقع الأمور معروف عند بعض القادة وصناع القرار لكنهم لا يرونه أهلاً لمن دونهم من المواطنين أو الرعية.

وفي ما يتعلق بالحضارة العربية والإسلامية التي كانت المسبب الأول لإنشاء مؤسسة الاستشراق لدى الغرب، فإنها لم تبال – كسائر الحضارات باستثناء الحضارة الغربية – بدراسة الحضارات الأخرى إلا في المسائل الإدارية والحربية و حدث هذا غالبا ما في آخر المطاف من بعد استعمار الغرب أقطار هذه الحضارات، وفرض نماذجه الحضارية عليها التي استمرت من بعد استقلال تلك الأقطار. ويأتي التاريخ المشترك بين الغرب والحضارة العربية والإسلامية بأمثلة عديدة من غلبة الغربيين على العرب والمسلمين في شتى المجالات لأجل انعدام معرفة الخصم عند هؤلاء ومسبق العلم عنه عند أولئك.

وكفى بهذه الأمثلة داعياً إلى إنشاء وتنمية علم الاستغراب بين العرب والمسلمين، لكنه أمر جانبي بالنسبة إلى ما هو أهم، وهو أن معرفة الغرب في خصائصه الجوهرية وتطوراتها فريضة علمية وحضارية على العرب والمسلمين الآن. وهذه المعرفة التي هي أساس علم الاستغراب يجب أن تسعى إلى استفادة العرب والمسلمين من تحقيقات الغرب وتجنب أخطائه ومساوئه فضلاً عن معرفة أحسن للحضارة العربية والإسلامية نفسها بمقارنتها بالحضارة الغربية، وهذا شأن يتأتى عليه تقييم أفضل لكلتا الحضارتين وانتفاع العقل من محاسنهما.

ففي هذا البحث تتم الإشارة إلى عدد من المسائل التي تطرح مواضيع للنظر في علم الاستغراب.

هدف الاستغراب وشروطه

وهدف الاستغراب – على عكس ما يحدث في الاستشراق – هو إثبات الأسس العقائدية الدينية والحضارية للحضارة العربية والإسلامية؛ لأن هذه الأسس هي ركيزة العلم والحكمة والمعرفة في جميع الميادين وشرط لا غنى عنه لوقوعها برمتها. ومعنى ذلك أن الاستغراب وسيلة لإثبات الهوية وتنميتها بفضل كشف إمكانياتها بملاحظة ما عند الغرب من أفكار وإنجازات تساند وتحسن الأصول الإسلامية للحضارة. ولسنا في تلك الدعوة بدعة من الباحثين فإثبات الهوية وتنمية الإمكانيات قد تم حدوثهما في القرون الأولى في مطلع وازدهار الحضارة العربية والإسلامية، واتصف عصر الانحطاط من ضمن أوصافه بعدم المبالاة بما كان يجري من أحداث وتغيرات في الغرب، وهو يمثل الحضارة الأكثر منافسة للحضارة العربية والإسلامية منذ ظهور الإسلام ومنشأ حضارته إلى وقتنا الحاضر. وعلاوة على ذلك فإن الحضارة العربية والإسلامية هي الحضارة الوحيدة في تاريخ الإنسانية التي طلعت بنية التحضر والتمدن بناء على خبرة الغير وتجربته بما كان يخدم مطالبها العقائدية ووجه نظرتها إلى الكون والخلق على أنهما آية من آيات وجود إله خالق لهما، وعلى ما يترتب عليه من مواقف وأعمال فكرية واجتماعية وسياسية.

وعلى ذلك، ومن حيث المبدأ يجب علينا وعلى كل من يريد إفادة الحضارة العربية والإسلامية ودولها ومجتمعاتها وشعوبها التمييز بين الإسلام عقيدة والإسلام حضارة،

أي بين مبادئ الإسلام وشكل تطبيقها عند المسلمين عبر العصور والدول والمجتمعات التي أسسها المسلمون. وكذلك التمييز بين المبادئ الدينية والمبادئ الفكرية والاجتماعية من أجل تقييمها في النظرية وفي واقع ممارستها عند العرب والمسلمين أفراداً وجماعات. ومن الواجب فرض طريقة التفهم والتحليل نفسها في دراسة الحضارة الغربية التي هي موضوع الاستغراب.

ولكي نسير على منوال علمي في ما يخص تاريخ الحضارة العربية والإسلامية يجب علينا إزالة القداسة من أفعال الرجال ما عدا الأنبياء والرسل فيما يخص المبادئ الدينية؛ لأن ما يخرج من دائرة المبادئ الدينية والأمور التوقيفية من عبادات وعقائد صالح للدراسة والتدبر الحر، وحتى العبادات والعقائد هي ميدان للتأمل، فإن هذه العبادات والعقائد في عينها وفي مقاصدها فريضة على كل مسلم ومسلمة في حدود قدرات كل منهما، وليس هناك فرق بين دراسة وتحليل العقائد والعبادات في الإسلام ودراسة وتحليل ما عداها إلا في الحواجز القائمة بين عقل الإنسان والحقائق الإلهية للكون، وحتى هذه الحواجز هي مؤقتة وخاضعة لقدرة الإنسان في تطوير عقله لتمكينه من إدراك حقيقة ما يقوم وراء اعتقاداتها الدينية المعروفة عنده عبر الوحي والرسالات النبوية والعبادات المفروضة عليه بحكمها.

ومن ضمن شروط إنشاء علم استغراب سليم ما قد ذكره مراراً وتكراراً علماء الإسلام الذين فتحوا العديد من مجالات العلوم، منها الاجتهاد في دراسة وتفسير المؤسسات والأحداث الحضارية أياً كانت الحضارة المدروسة بغية إدراكها الدقيق والاتعاظ بما جرى فيها من إيجابيات وسلبيات وليس قصداً للشهرة والتعالم أي التظاهر بالعلم.

ولا يجوز أن يكون الغرض من الاستغراب إظهار محاسن الحضارة العربية والإسلامية ومساوئ الحضارة الغربية أو العكس لكي نقتنع ونقنع بتفوق حضارة ما على حضارة أخرى في معنوياتها وحقيقتها، لكن الإشارة إلى محاسن ومساوئ الحضارة المدروسة تستهدف السعي إلى إبقاء المحاسن وعناصرها وإزالة المساوئ وأسبابها. ولا يجوز كذلك اتخاذ الاستغراب وسيلة تملق لا للغربيين ولا للشرقيين على غرار الأدب المتغرب عند العرب الذي يتناول الموضوعات العربية والإسلامية المشيقة عند الغربيين بغية

نيل اهتمام الغرب بها والقيام بترجمتها إلى اللغات الأوروبية للفوز بالشهرة في الغرب. والعكس صحيح فلا ينال الدرجة العلمية أي تأليف جاء في مدح العرب والمسلمين على غير برهان من خبر أو استنباط.

ومثلما حدث مع العلوم الشرعية في الإسلام، فلا بد هنا من نبذ التقليد وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه للقيام بهذه المهمة في دراسة الغير، وعلى الأخص الغرب للتتلمذ عليه والاقتداء به فيما هناك فائدة للحضارة العربية والإسلامية وأفرادها ومجتمعاتها.

وعلى كل مقالة تكتب في مسألة من مسائل الاستغراب لا بد من تقديم الدليل كما علمنا في ذلك الفقهاء وعلماء الأصول والباحثون في عصور الازدهار للحضارة العربية والإسلامية، وأن تشهد بالحق وبالعدل كما يأمر القرآن بذلك في موضعين متشابهين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (سورة النساء، 135)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة المائدة، 8)

وبصفته فريضة دينية وحضارية يدخل إنشاء علم الاستغراب تحت وصف الأمة الإسلامية بأنها شاهدة لجميع الحضارات والمجتمعات الأخرى حينما يقول القرآن في آيتين كريمتين:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (سورة البقرة، 143)

﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (سورة الحج، 78)

في هذا السياق حث على استخدام القرآن ونصوصه ليس فقط في معانيها الدينية والعقائدية بل أيضاً في دلالاتها الفكرية والفلسفية – إن صح هذا التعبير – للقرآن. في هذا المعنى، لا تقتصر أبعاد القرآن الكريم على فحواه الديني والعقائدي والسلوكي بل يمتد ذلك إلى محتوياته التاريخية، ووجه نظره إلى ما يتطرق إليه من الموضوعات.

وفي هذا الصدد نعترف بتاريخية القرآن، بمعنى أنه يقدم بجانب معجزته الإلهية أراء الإسلام عن شتى القضايا، وسواء كنا نؤمن بإلهية المصدر وأن المصدر إنساني محض فإن استنباط الحكمة ووجهات النظر الموجودة في القرآن لا يمس اعتباره منزلاً من لدن رب العالمين أو من إبداع بشري على الرغم من أنه لو تبنينا هذا الرأي الأخير لزدنا صعوبة في تفسير العبقرية الماثلة في نص القرآن وجعلنا المسألة عويصة، في حين أن الإيمان بإلهية تأليف القرآن يشرح جميع ما يوجد فيه من دلالات مختلفة الأنواع المتشعبة في جملة آياته.

ويجب ذكر المصادر والاستدلال وأن لا نعمل مثل ما عمله العالم العظيم ابن خلدون أن أتى بالاستنباطات من غير أن يذكر المناهل التي أخذنا منها للتوصل إلى النتائج، فذكر المراجع والأدلة وطرق الاستفادة والاستنتاج من ثمار العلم، وليست هذه أدوات لقطف العلم فحسب. وبهذا المعنى وردت آيات فرآنية ترسم المنهاج العلمي بصحبة الأبعاد العقيدية والخلقية:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة البقرة ، 140)

﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ (سورة البقرة، 283)

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ (سورة المعارج، 33)

التاريخ هو علم الأصول عند الاستغراب

ومما يلفت الانتباه إليه أن القرآن يفرد عدداً من آياته لأهمية التاريخ وأحداث الأمم السابقة لفهم الواقع الراهن بغض النظر إلى كونه الواقع المعاصر لنزول القرآن أو واقع قارئ أو سامع النصوص القرآنية الحاوية على مادة تاريخية نظرية أو تطبيقية. ومن العجيب أن ثاني سؤال طرحه فرعون على موسى – عليه السلام – في لقائهما الأول من بعد بعثة موسى – عليه السلام – كان إن كان قادراً على الإخبار عن ماضي الإنسانية قبل عصر الفراعنة في مصر:

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (سورة طه، 51)

وفي القرآن آيات مولعة بالمكانة العليا التي يشغلها التاريخ في تكوين العقل الإنساني السليم القاوي على تنمية قدراته في أقصى مدى:

﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف، 176)

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (سورة يوسف، 3)

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (سورة يسوف، 11)

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ (سورة طه، 99)

ومقصود دراسة التاريخ يتجاوز معرفة أحداث الماضي المحضة وتدبرها والاتعاظ بها بل هي أساسية لتكوين مفهوم الفرد والمجتمعات في حالهم ولأنفسهم لبناء هويتهم، وهذه الهوية التاريخية؛ أي هذه النظرة التاريخية التي توجه الفرد والمجتمع والجماعات إلى أنفسهم هي التي تفسر لهم معنى وجودهم وتملي عليهم أفعالهم وتوجهاتهم وتحركهم إلى سعيهم الاجتماعي والسياسي والحضاري. وتشمل النظرة التاريخية - وبالأحرى، المفهوم التاريخي في كل فرد أو مجتمع أو جماعة - جميع تحركاتهم وتفكراتهم إلى درجة أننا نفكر ونحلل ونكتب وندرس ونفهم الأمور كلها ضمن إطار تصورنا لتاريخ أنفسنا وجماعتنا: سياسية كانت أو دينية أو اجتماعية أو وطنية أو أياً كانت الانتماءات الفردية أو الجماعية التي تنبني عليها هويتنا.

فلقد قصد الاستشراق في العصر الوسيط لتاريخ أوروبا حينما ظهر في الأراضي المسيحية في شبه الجزيرة الإيبارية إنشاء تاريخ لتلك الجزيرة، تساند مطامع تلك الممالك في الاستيلاء على أقطار الأندلس العربية الإسلامية. وقد أنشأ الاستشراق ذلك التاريخ الملائم لأطماع السلطات الأوروبية في الدولة العربية والإسلامية بالأندلس وطوره وضم إليه جميع أنحاء العالم؛ لأمرين جوهريين: **أولهما** حث المسيحيين الإيباريين ومن جاء لنصرتهم من أوروبا على اقتطاع المزيد من أقاليم ومدن الأندلس، وفيما بعد السيطرة على ما تمكنوا من بلاد وأقطار العالم كله (فلا ننسى أن عصر الاستعمار الأوروبي على العالم بأسره ابتدأ وقتما انتهى الاستلاء على الأندلس بسقوط غرناطة، آخر المعاقل العربية

والإسلامية في الأندلس) وذلك عبر تصويرهم الملاك الحقيقيين للجزيرة الإيبارية ومنحهم حق الأسبقية التاريخية في امتلاكهم تلك الجزيرة، على الرغم من وهم ذلك التصوير وافتعاله. ولكن هذا التصور بقي ماثلا في أذهان الإسبان الحاليين عبر تاريخهم كله. وهذا النوع من التصورات والتصويرات التاريخية مازال قائماً ومستخدماً لإضفاء شرعية معنوية لأوضاع سياسية إلى يومنا هذا مثلما يحدث مع الكيان الصهيوني أو مستعمرات أخرى امتدت إلى الآن.

والأمر الثاني هو نشر هذا التصوير التاريخي المفتعل والتصورات التاريخية المنبثقة عنه بين الجميع لإقناع الكل بمفترضاتها حتى تصبح هذه المفترضات مسلمات علمية وبديهية لا أساس لها من الصحة، لكنها مقبولة عند الجميع على أنها حقيقة ما حدث، وسبب ما نحن عليه في الوقت الحاضر وعوامل حتمية للمستقبل المنظور أو البعيد.

ولا يستغني تصوير التاريخ المفتعل عن تقديم حقائق تاريخية ولكن تحليل هذه الحقائق وتأويلها هما العاملان اللذان يسببان تزوير هذه الحقائق وتوهيمها على غير الواقع كما يقول القرآن:

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾ (سورة التوبة، 48).

وعلى ذلك ومن بين أهداف الاستغراب إنشاء علم للتاريخ يعيد الأمور إلى صوابها بالعدل والإنصاف وياتي بمفهوم تاريخي سليم يساعد الإنسان – غربياً كان أو شرقياً – في تحديد هويته ومعرفة هويات الآخرين كخطوة أولى للتفاهم والتعامل على قدر رغباتهم في ذلك. وليس من أخذه وإعماله في الميدان السياسي مباشرة كما كان، وكما هو الأمر في الاستشراق، ولكن تنوير العقول وتخصيبها لإصلاح الوقت الحاضر وتحسين الآتي على شكل أكثر عدالة للجميع في المعاني وفي الأعمال. وذلك ما لم يكن هناك مجالا ولا فرصة سانحة لترجمة سياسية لاكتشافات علم الاستغراب عامة وعلم التاريخ في الاستغراب خاصة. فإن وردت الفرصة وصادفت الإرادة فليس هناك مانع في نقل نتائج البحث العلمي في التاريخ إلى واقع الأحداث. وعلى كل فانتقال المفاهيم التاريخية المعروضة في البحوث إلى أرض الواقع يقع دائماً وباستمرار لفائدة الأفراد والمجتمعات ولو لم تكن إرادة سياسية في ذلك.

وفي هذا العلم الاستغرابي للتاريخ لا بد من إفساح مجال للمقارنة بين ما كتبه الغربيون ، مستشرقين وغير مستشرقين، للوصول إلى أفضل النتائج مثلما يحدث مع الأدب المقارن ولكن باختلاف في المنطلقات، فإن الأدب المقارن – في غالب الأحيان – يعتمد على مركزية الأدب الغربي ويخضع أو ينبغي أن يخضع الاستغراب في التاريخ و في الأدب وفي أي حقل من حقول المعرفة لمراعاة منبع الأشكال الأدبية والأفكار النظرية وانتقالها ونقلها من مكان إلى مكان ومن حضارة إلى حضارة ومن عصر إلى عصر.

وفي ذلك من المهم في مكان الإقرار بأن الاهتمامات العلمية في الدراسات الأدبية والإنسانية مختلفة ومتمايزة بين الغربيين والعرب والمسلمين استناداً إلى المبادئ الخلقية والتصور العام للإنسان والخلق، ويجب أن نعي ذلك ونعلم هذا الفرق، ويطلع العرب المسلمون على اهتمامات الغرب وعلى نظرتهم في اهتماماتنا للعثور على هذه المزايا الاختلافية بين الحضارتين بغية تقديرهما أحسن تقدير في ضوء الضوابط العلمية وسعياً إلى تعاملهما انطلاقاً من هذا التمايز الحضاري الذي يحتوي كذلك على اشتراك كبير وواسع في الأحداث التاريخية والإنتاج الحضاري والمبادئ الفكرية والخلقية.

وبهذا الصدد وفي مواجهة الاستشراق فعلى الاستغراب كشف وإبراز الروابط المتينة التي تصل بين الحضارة الغربية والحضارة العربية والإسلامية؛ فكلاهما حلقة من حلقات المسيرة الإنسانية عبر التاريخ وحلقتان متسلسلتان متراصتان. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الحضارة العربية والإسلامية هي الوارث العملي والواقعي لحضارة الغرب الكلاسيكية الآتية من زمان الإغريق والرومان، مثلما ورثت الحضارة العربية والإسلامية حضارة فارس القديمة وبعض المسائل من حضارتي الهند والصين قبل الإسلام. كما يجدر هنا القول إن الحضارة الغربية الحالية نابعة من الحضارة العربية والإسلامية في قرون ازدهارها ووارثها في التقدم المادي المحض وفي بعض المبادئ المعنوية والأخلاقية. وفي ذلك يقول المفكر والمؤرخ الأسباني خوسي ماريا ريداو:

"إن الإسلام [..] قد أعاد استخدام تراث الماضي [تراث الحضارة الرومانية والإغريقية الكلاسيكية في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط المعاصر والمحاذي

للتراث نفسه في الكثير من أنحاء أوروبا] وتبناه بفضل ترجمة هذا التراث إلى لغة دولته وتكييف ذلك التراث مع قيمه وعقائده، وكان هذا الأمر يمثل تحدياً في مجال آخر، في قتال أشد وأهم في النتائج، ألا وهو التنافس بين السلطان الإسلامي والسلطات المسيحية للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط. [..] ولقد رسم هذا الادعاء بالحكرة على التراث الكلاسيكي القديم فضاء التفكير الأوروبي منذ القرن السادس عشر الميلادي؛ لأن أصل النزاع في الحدود المتوسطية لأوروبا كان يكمن في تحديد الخط الفاصل المنشود في الخريطة السياسية بين الجانبين بالرغم من الاشتراك بينهما في البعض من الأصول والتاريخ، بخلاف ما كان قد حدث في الحدود الشرقية لأوروبا التي شهدت رسم الخط الفاصل بين أوروبا الغربية وغيرها في مجال الأفكار. ومن هذا المنطلق فليس استعادة الثقافة الكلاسيكية القديمة هي أهم نتائج النهضة الأوروبية بل تجزئة الفضاء المتوسطي الذي شهد برمته إنشاء الحضارة الكلاسيكية القديمة وإحلال النزاع على ملكية التراث المشترك في الثقافة وفي الأفكار محل النزاع بين المسيحية والإسلام من ناحية السياسة المحضة.

ولقد ترتب على ذلك الإحلال إنشاء وتحقيق القانون الكلاسيكي [في الحضارة الغربية]؛ أي تحديد نموذج في الفن وفي الثقافة ناتج عن انتقاء عناصره بدقة مقصودة لإبراز الخلافات والاختلافات وليس بناء على استرداد آثار الماضي. وهكذا نرى أن عناصر التراث الكلاسيكي ومآثره المقدرة عند أصحاب النهضة الأوروبية تخالف نقطة نقطة عناصر ومآثر ذلك التراث المقدرة في الإسلام" (ريداو، 2000: 16-17).

والاستغراب موجود في الغرب منذ النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، وهو من نتاج الحرب العالمية الثانية ومن نقد الاستعمار الغربي لدى الغربيين أنفسهم، لكنه على عكس ما يحدث مع الاستشراق لم يظهر على شكل مؤسسة ولا منظومة فكرية بل في صورة مواقف ووجهات نظر علمية لدى البعض من الباحثين الغربيين على الأغلب فإن من عظمة الحضارة الغربية الراهنة قوتها واستعدادها للانتقاد الذاتي؛ فهذا النوع من الانتقادات لا يصلح ولا يقدر عليه إلا القوي السالم من العقدات النفسانية ومن التدني الاجتماعي والسياسي. فنرى مثلاً رسالة دكتوراه تبرهن على الأصول الشرقية (فينيقية ومصرية أي سامية وحامية) للحضارة الإغريقية القديمة أثارت ضجة عارمة في أوساط

الدراسات الإغريقية في الغرب كله لم تهدأ بعد. وعنوان هذه الرسالة هو أثينا السوداء التي تقول في مجموعة أطروحاتها ما يرمز إليه مقولة أحد دارسي الحضارة الإغريقية القديمة وهو الأستاذ السويسري فكتور بيرارد:

« إن كنا قد فصلنا في علم الجغرافية بين أوروبا وآسيا فإننا نفرق بين ما نسميه تاريخ الإغريق وما نطلق عليه اسم التاريخ القديم [المتعلق بالحضارات السابقة أو المعارضة للإغريق]. ولكننا نشاهد بأعيننا في نصب تذكار محسوسة في مادتها أن الإغريق في الناحية التقنية من فنونهم تلمذوا على أيدي فينيقيا ومصر القديمة؛ ونرى أنهم أخذوا من الشرق السامي حتى حروف الهجاء ولكننا نتراجع بشيء من الرعب أمام الأطروحة المنتهكة للحرمات التي تقول إن مؤسسات الإغريق وعاداتهم، ودياناتهم وطقوسهم وأفكارهم وأدبهم وجميع ما في حضارتهم الأولى ليس في الاحتمال إلا تراث الشرق عندهم» (بيرارد، 1894: 10).

وفي مقابلة ما لا مكان للإنكار في تحاذي الاستغراب والاستشراق فإن هناك أموراً لا يجوز للاستغراب الوقوع فيها، وفي صدارة هذه الأمور المنكر عليها في الاستشراق وغير المقبولة في الاستغراب هو كون الاستشراق منظومة فكرية تؤطر أعمال أتباعها غربيين وشرقيين، ويصبها في قوالب لا تسمح بحرية الرأي ولا بإعمال نظريات أو أفكار جديدة في جميع الميادين المدروسة لديه.

فمن أهداف الاستغراب إنصاف الحكم في نتاج بحوثه حول أبعاد الحضارة الغربية في جميع عصورها وجميع ثقافاتها المحلية؛ لأن غرض الاستغراب هو معرفة الغرب الحقيقية وليس تنقيص قيمته أو السيطرة عليه أوالاستطالة على أفراده ومجتمعاته وأقطاره السياسية.

وفي هذا الصدد ومن الناحية الحضارية على العرب والمسلمين إدراك أن الحضارة الغربية ليست خصمهم بل التلميذ المتفوق الذي قد سبق معلمه العربي والإسلامي، لأن ما اكتسب الغرب من خير وتقدم ورفاهية وقوة سببه وارد فيما اتخذه من الحضارة العربية والإسلامية في شتى الميادين ومن أبزرها الميدان الاجتماعي والمجالان الفكري والعلمي. ولكن بقيت في الحضارة العربية والإسلامية أمور لم يتبنها الغرب، وهي قيم ومفاهيم مهمة

للإنسانية. وفي ذلك يتعين على الاستغراب جمع هذين النصفين من القيم والمفاهيم في بقعة واحدة.

المراجع

- بيرارد، فكتور (1894): أصول الطقوس الأركادية: نموذج منهاجي في منهاجية الإغريق، باريس، منشورات مكتبة المدارس الفرنسية في أثينا وروما.
- برنال، مارتين (1987): أثينا السوداء: الجذور الإفريقية والآسيوية للحضارة الكلاسيكية. المجلد الأول: اختلاق اليونان القديم (1785–1985).
- رداو، خوسي ماريا (2000): «الحدود الغامضة» في مجلة مفاتيح العقل العملي، العدد 108، كانون الأول/ ديسمبر عام 2000.